التربية والتعليم في فكر ابن حزم الأندلسي

Education in the thought of Ibn Hazm Andalusi

أ.د سعد عبد السلام

جامعة زيان عاشور الجلفةsaadibnhazm@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/2/22 تاريخ القبول: 2023/6/4 تاريخ النشر: 2023/6/10

ملخص: إن الغاية السامقة من أي عمل تربوي، هو تزكية النفس وتهذيبها، ليصلح حال الفرد والمجتمع، ولا يكون ذلك إلا بتدريب الصغير وتنشئته وتوجيهه، وإرشاد الكبير وتعليمه لإصلاح سلوكه، وتقويم ما كان فاسدا، لتتربى النفوس وتتمسك بالفضيلة، لهذا كانت العملية التربوية من أبرز وأهم المواضيع التي اعتنى بها مَن قام بالتأليف في فلسفة التربية، من مفكري وعلماء الإسلام على مرّ تاريخ الحضارة الإسلامية، حيث كانوا منسجمين مع عقيدتهم الداعية إلى ذلك، ومن الآيات في هذا السياق، قال الله تعالى:"« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». ويعتبر ابن حزم الظاهري فقيها وعالما وفيلسوفا، استعان في تقديم وبيان آرائه التربوية بالقرآن الكريم والحديث النبوي، وما لم يظفر فيه بالدليل الشرعي عالجه معتمدا على أحكام العقل وعلى تجاربه الشخصية وتحليلاته لواقع مجتمعه الأندلسي، وما مكنته ثقافته في صنوف المعرفة الإنسانية؛ فكانت أفكاره التربوية ضرورية حتى وقتنا الحاضر، لكونها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، مصدرا التشريع الإسلامي الصالح لكل زمان ومكان.

كلمات مفتاحية: ابن حزم، التربية، الفكر الإسلامي، الفضيلة، إصلاح النفس، تهذيب السلوك.

Summary: The supreme goal of any educational work is self-purification and refinement, in order to reform the condition of the individual and society, and this can only be done by training the young, bringing him up and directing him, and guiding and educating the old to reform his behavior, and correct what was corrupt, to educate souls and cling to virtue. Therefore, the educational process was one of the most prominent and most important Topics that were taken care of by those who wrote in the philosophy of education, from the thinkers and scholars of Islam throughout the history of Islamic civilization, as they were in harmony with their belief calling for that, and from the verses in this context, God Almighty said: “And I created the jinn and mankind only to be worshipped.” Ibn Hazm Al Dhahiri is considered a jurist, scholar and philosopher, who sought help in presenting and explaining his educational views with the Noble Qur’an and the Prophet’s hadith, and what he did not find in the legal evidence he treated depending on the rulings of reason and on his personal experiences and analyzes of the reality of his Andalusian society, and what his culture enabled him in the types of human knowledge; his educational ideas were necessary Until the present time, because it is derived from the Noble Qur’an and the purified Sunnah, a source of Islamic legislation that is valid for every time and place.

Keywords: Ibn Hazm, Education, Islamic Thought, Virtue, Self Reform, Refinement of Behavior.

مقدمة:

تعبّر الفلسفة التربوية عن روح المجتمع؛ إذ يعد سلوك أفراده مرآة صادقة تعكس ما وصل إليه من رقي أو تدنٍّ أخلاقيّ، لذلك نادى الأنبياء والفلاسفة والمصلحون عبر التاريخ البشري، بضرورة تربية الأبناء وتعليمهم، لتهذيب نفوسهم وإصلاح عيوبها، وكان غرضهم من ذلك أن تستقيم للإنسان معيشته؛ فيهنأ ويسعد فردا ومجتمعا. ولعل المتأمل في حياتنا المعاصرة يصاب بخيبة أمل، جراء التهاون في تربية وتعليم الأجيال المعاصرة، وكان هذا من أسباب تردي أخلاق الأمم وضعفها وذوبانها، أو اضمحلال شخصيتها وكينونتها، ومن ثمة تصبح تابعة ومنقادة لغيرها؛ ومع أننا أمة عريقة في التربية والأخلاق، ونمتلك كل مقومات الحياة العقدية والفكرية والتراثية والمادية، الكفيلة ببناء أمة الحاضر والمستقبل؛ إلا أن الواقع يثبت خلاف ذلك، لهذا نحاول تقديم وجهة نظر أبي محمد ابن حزم الأندلسي (384–456). الذي يعتبر رائداً من رواد التربية والتعليم في عصره؛ بل إن أطروحاته في التلقين ومراتب العلوم وخصال العالم والمتعلم، وقد تناول أبو محمد الغاية من الحياة كلها، وهي:" طرد الهم"، وهي أهم المسائل التربوية التي أولاها عناية بالغة، بل وأعطاها الأولوية على غيرها، إذ افتتح بها كتابه التربوي الأخلاقي:" في مداواة النفوس" وتمحورت كل آرائه التربوية الخلقية حولها، لأنها جوهر وماهية الإنسان دينيا ونفسيا وأخلاقياً، وتحدث عنها بشكل مستفيض؛ فأسمى خير يتطلع الإنسان إلى تحقيقه في نظره، هو تلابية المرء على التخلص من الهمّ، لكونه أعظم شر يسعى المرء للتخلص من ربقته، والإنفكاك منه بشتى الوسائل والسبل." (ابن حزم، 1987، 337/1) وله في هذا الشأن الكثير من روائع الاستدلالات والاستنباطات التربوية التي تشكل بمجموعها ثروة تربوية هائلة في المجال التربوي، تستحق أن تفرد في رسائل تربوية مقننة، ليستفيد منها مجتمعنا في هذا العصر، فهذا أبرز أهدافنا من هذا البحث، ولتوضيح مشروعه التربوي الهادف، ونوع التعلّمات المقترحة، وكذا الكتب التي قررها ابن حزم لكل مرحلة دراسية، ولبيان حقيقة التربية وما تتطلبه لغرض الوصول إلى الصلاح والفضيلة، كما تصورها أبو محمد؛ استعنا بالمنهج التحليلي المقارن، بحيث نعرض أفكاره ونحللها، محاولين مقارنتها بما ورد عند غيره من التربويين.

- أولا: منهج ومراحل تربية وتعليم الأبناء

قسم ابن حزم العملية التربوية التعليمية إلى مراحل عدة، على النحو الآتي:

أ- المرحلة الأولى:

تبدأ هذه المرحلة من سن 5 سنوات؛ أي منذ أول اشتداد الطفل وفهمه ما يقال له وما يخاطب به، وقدرته الإجابة على أسئلة معلميه، وذلك لا يكون إلا في خمس سنين أو نحوها، فيسلَّم إلى مؤدب ليعلّمه الخط وتأليف الحروف والكلمات، فهذا هو حد تعلّم الكتابة؛ أما حد تعلم القراءة، فهو أن يمْهَر في القراءة لكل كتاب، ويحفظ القرآن الكريم؛ فيجمع بذلك وجوهًا كثيرة، أحدها: التدرب في قراءة القرآن الكريم، وتمرين اللسان على تلاوته.« فالواجب على من ساس الصغار وغيرهم، أن يبدأ منذ اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوّتهم على رجع الجواب – وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبي– فيسلّمهم إلى مؤدب في تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف...»(ابن حزم، 1987، ص65). فابن حزم قدَّم ترتيباً سُلّميًّا لمهارات وكفايات التعلم البيداغوجية، والأساليب المعرفية الكفيلة بذلك، بدءاً من تعلم الخط في مرحلة مبكرة، حدَّدها في سن الخامسة، واشترط شرطين اثنين هما:

أ- فهم وتفاعل الطفل مع محيطه.

ب- ردود أفعال الطفل وسلوكاته.

ذلك أنّ الطفل في هذه المرحلة العمرية « يولد قليل المعرفة بذاته وبمحيطه وبعالمه الخارجي، لكنه كلما كبر وامتد به الزمن واتسع المكانّ... كلما تعلم وزادت معارفه ومعلوماته، التي تؤثر في حياته إيجاباً أو سلباً أو معاً، نتيجة ملكاته المعرفية...»(عبد العزيز قريش، 2011، ص58) وهو ما أكد عليه عالم النفس:" بياجي" الذي توصَّل إلى النتيجة نفسها، والتي سبقه إليها ابن حزم بقرون، ومفادها أن « لدى الأطفال نفس القدرة على التكيف مع البيئة بعد اكتشافها واستطلاعها.» (أوزي، 1983، ص71).

وتركيز ابن حزم على حفظ القرآن الكريم، لكونه مصدرا وأصْلا للتربية والتعليم معا عند المسلمين، فمنه يتربى الطفل المسلم على السلوك الحسن والخلق الحميد، وبالقرآن ينبني ما يحصل عليه بعدُ من الملكات، ثم إن التعليم في الصغر أشد رسوخًا، وهو أصلٌ لما

بعده؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه؛ وحفظ القرآن الكريم يعلّم الطفل نطق اللغة العربية في دقة؛ لأن القراءة القرآنية هي أفضل ما ينطق ويقرأ في العالم الإسلاميّ، كما أنه يمد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة، تهيّئ الطالب إلى دراسة النحو التي ستأتي فيما بعد، فيتخذ من آيات القرآن الأمثال والشواهد. (ابن خلدون، 2004م، ص353) و(ريبيرا، 1994م، ص35).

ويمكننا أن نذكر هنا أنّ ابن حزم، تعلّم الخط والقرآن الكريم على يد الجواري اللائي كنّ في قصر أبيه. « وهُنّ علّمنني القرآن وروّيننني كثيراً من الأشعار، ودرّبنني في الخط...»(ابن حزم، 1987، 155) لكن كيف يتوصَّل الطفل تربويا إلى اكتساب العلوم ؟.

ثمة ثلاث طرق بيداغوجية في نظر ابن حزم، تؤدي بالطفل إلى تشييد خلفية نظرية وتجريبية ملائمة لتعلّم علم ما، وهي: السماع ثم القراءة فالكِتاب. «... وباليقين يدري كل ذي لب سليم أنه لا يُتوصّل إلى العلوم إلَّا بطلب، ولا يكون الطلب إلَّا بسماع وقراءة وكتاب، لابد من هذه الخصال الثلاثة، وإلَّا فلا سبيل دونها إلى شيء من العلوم البتة.»(ابن حزم، 1987، 65). وهذه الطرق "الخصال"، يمكن أن نطلق عليها مصطَلَحَيْن تكرّرا في أدبيات التربية الحديثة، وهما: المهارة والكفاية. ومع أنّ ابن حزم لم يستعمل هذين المصطلحين، إلا أنه لامس معناهما ومرادهما، بتشديده على وسْم ووصف السماع والقراءة والكتاب بلفظة:" خصال". فقد اعتمد في هذه المرحلة على ثلاث طرق متتالية لتعليم الطفل، وهي: والسماع والقراءة والكتابة. وفالسماع له أهميته، ليس فقط لأن وسيلة الطفل في بداية تعلّمه تكون بالسماع قبل القراءة، ولكن كذلك لأن الثقافة الإسلامية تعتمد في جانب كبير منها على السماع والتواتر، ليضاف لها بعدئذ القراءة والكتابة.(حسان، 1964، ص118)

كما يتبين لنا من قوله ذاك، أن شرط التعلم هو ما أسماه: "الطلب" أي ترجمة الرغبة "السماع" إلى فعل إنجاز سلوكي تعلّمي وهو:" القراءة"؛ أو بمعنى آخر، قابلية كل طالبِ علم إتقانَ وتحويلَ مهارة "السماع" إلى كفاية. فالمهارة Habileté حسب عبد الكريم غريب هي:« مجموعة محصورة ضمن كفايات معينة، تُحيّن من خلال سلوكات ناجعة،

وتنتُج عموماً عن حالة من التعلم، وهي عادة ما تهيَّأ من خلال استعدادات وراثية... وأما الكفاية Compétence فهي بنيات مندمجة يبنيها المتعلم بواسطة تفاعله وجهده، فتمكنه من توظيف تعلماته، كي يقوم بالمهام التي تتطلبها وضعيات "مشاكل مطروحة" عليه.» (مجلة: بيداغوجيا الكفايات، 2004، ص71). وفي الفكر التربوي الحديث تتم محاولة التواصل بين الفلسفة التربوية والواقع العملي؛ فإذا أخذنا مثلاً نظرية تربوية مثل: "نظرية التأمل والفهم" التي لجأت إليها التربية، نلاحظ أنها أغفلت الحفظ، فتلك النظرية دعوة سليمة في حد ذاتها، لكن سلامتها لا تحتّم اجتناب الحفظ في سن مبكرة من مراحل التعليم، تلك المرحلة التي يكون فيها الإنسان أقدر على الحفظ، لاسيما للمسلم في حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ومرحلة الحفظ في تاريخ التربية الإسلامية، لا تتعارض مع التأمل والتفهم، وكلاهما يسير جنباً إلى جنب؛ وكم فقدنا من استقامة لمنطق اللّسان واستيعاب لآي القرآن الحكيم من جراء هذه النظرية في عصرنا الحاضر؛ فالطفل المتعلّم يتربى ويتدرب على الاستيعاب.« ويحصل الاستيعاب عندما يخضع الفرد المواضيع والأشياء لخصوصية البنيات الذهنية، التي يتوفر عليها بعد تمْهير المتعلم في قراءة وحفظ القرآن الكريم، ولهذه المهارة الأخيرة منافع عظيمة.» (ابن حزم، 1987، ص66) .

أولاهما: التدرب على قراءة القرآن وغيره، وثانيهما: تمرين اللسان على فعل القراءة أي التلاوة. « فالحفظ والسماع لهما أهميتهما، ليس فقط بحكم أن الطفل يسمع قبل أن يقرأ؛ بل أيضاً لأن الثقافة الإسلامية تعتمد في جانب كبير منها على السماع والتواتر والحفظ.» (حسان، 1964، ص120) فتتكون بذلك القوة الحافظة التي هي« خزانة مدركات»، وتتم من خلالها عملية استحضار المعلومات المخزنة؛ والاستحضار Evocation يعني:« أنه تمثّل ذهني لما تم إدراكه؛ فيتجسد في جعل موضوع التعلم متواجداً في الذهن...» (شالقان، 2011، ص182) و(الأوراغي، ط1990، ص57). فيؤدي التعليم بذلك للمعرفة، ومعناه « أن تكون –المعرفة– وظيفية موجهة وهادفة، وليست معرفة للحشو والتحفيظ والتخزين وتعليب الذاكرة والفكر والوجدان، إنه إذن تعليم للتعلّم المستدام.» (محسن، 2009، ص52) (محسن، 2002، ص73).

ب- المرحلة الثانية:

تبدأ بعد أن يجيد الطالب القراءة والكتابة والخط؛ إذ ينتقل بعدها إلى تعلم النحو واللغة. « فإذا درب الغلام في ذلك –الخط–، درس وقرأ...» (ابن حزم، 1987، ص65) ويحدد ابن حزم بدقة الكتب الواجب تدريسها للطفل في هذه المرحلة، وأقل ما يجزئ من النحو هو كتاب:"الواضح" للزبيدي، دون التعمق في علم النحو، إذ أن الغرض هنا هو تعليمه المخاطبة وإتقان أحوال الإعراب. (ابن حزم، 1987، ص66). فهو هنا يحرص على أن يقدّمَ للمتعلم، القدر الكافي للسلامة اللغوية، دون حاجة إلى تعقيدات وتفريعات تشوّش أكثر مما تنظّم؛ إذ أن طريقة تعليم النحو في هذه المرحلة اعتمادًا على المتون والمختصرات قد أثبتت نجاحًا باهرا، في حين أخفقت الطرق التربوية الحديثة في تعليم النحو؛ لأنها تخلو من الاعتماد على طريقة المتون والمختصرات التي اعتمد عليها السلف. (حسان، 1964، 128) و(عيسي، 1982، ص216) ثم نرتقي بعدئذ على سلّم المعرفة بتعلّم علميْ: النحو واللغة؛ إذ القراءة مرتبطة أشد الارتباط بمعرفة قواعد النحو الأساسية.« فإنْ جهِل الطالب هذا العلم، عسُر عليه تعلّمُ ما يقرأ من العلم، وعسُر عليه فهْم واستيعاب كلام الله تعالى.»(ابن حزم، 1987، 66- 95).

ففلسفة أبي محمد –ابن حزم– التربوية، تعتمد في منهج التربية والتعليم، بتقسيمه إلى مراحل تتفق مع ما أقرّته الفلسفات التربوية الحديثة، كضرورة مراعاة النمو الإدراكيّ والمعرفيّ والوجدانيّ والمهاريّ للمتعلم. وتلقينُ العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدًا، إذا كان على التدرّج شيئًا فشيئًا وقليلاً فقليلاً، تلقى عليه أوّلاً مسائل من كل باب من هذا الفن، هي أصول ذلك الباب، ويقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرِد عليه، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، حتى ينتقل فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم له ملكة الاستعداد، ثم التحصيل، فيحيط بمسائل ذلك الفن. (ابن خلدون، 2004م ، ص247).

ج- المرحلة الثالثة:

بعد أن يُتْقن الطفل "طالب العلم" النحو واللغة، عليه تعلّم علم الشعر في حدود معينة، ويشترط ابن حزم في الشعر، ما حوى الحِكم والخير كشعر حسان بن ثابت، إذ أنه نِعم العون على تنبيه النفس، وينبغي تجنيبه من الشعر أربعة ضروب: الغزل والتصعلك وذكر الحروب والهجاء؛ لأنها تهوّن على المرء التحول إلى أخلاق أهل السفه. وتتضح الفلسفة التربوية لدى ابن حزم، عن طريق المنهج الذي رسمه للتعليم في هذه المرحلة، واختيار الشعر الذي فيه تربية الخُلق وتنمية الفضائل. ليُنقل الطفل بعدها إلى دراسة علم العدد، فيعرف الحساب والهندسة، ويعرف الأوقات وزيادة الليل والنهار، ومنازل الشمس والقمر... ويُوصي ابن حزم طالب العلم بتعلم علم الفلك، حيث يتوصل به إلى: « معرفة نسبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها، وهذا علم مفيد جدًّا يقف بالمرء على حقيقة تناهي جرم العالم، وعلى آثار صنعة الخالق في العالم. ولابد أن يعرف من الحساب ما يعرف به القبلة والزوال إلى أوقات الصلوات، وقسمة المواريث والغنائم، فإن تحقيق ذلك فرض لابد منه. (ابن حزم، 1987، 69).

د- **المرحلة الرابعة:**

يتعلم الطفل في هذه المرحلة المنطق، ليعرف به ما البرهان؟ وما الشغب؟ ... وبواسطة هذا العلم، يقف على الحقائق كلها، ويميزها عن الأباطيل تمييزًا لا يبقى معه ريب. وينظر في الطبيعيات وفي الحيوان والنبات والمعادن، ويقرأ كتب التشريح... لمعرفة تأثير الصانع وحكمته وقدرته. (ابن حزم، 1987، ص72). ولعل مشروع ابن حزم التربوي هذا، يبيّن مخالفة ابن حزم بعض ما كان سائدا من مناهج تربوية تعليمية في عصره، ومن الطبيعيّ أن يباين منهجه هذا ما كان سائدًا في الأندلس؛ لأنه جعل للمنطق والعلوم الطبيعية مكانة مهمة فيه.

هـ- **المرحلة الخامسة:**

يدرس الطالب علم التاريخ « فالتاريخ سهل جدًّا ومنشط...» (ابن حزم، 1987، 69-73) وتتضح فلسفة ابن حزم التربوية في ذكره للتاريخ، بما له من تأثير أكثر وقعًا على النفس، حيث يقف الدارس على عِبر الأمم السابقة، ويدرك ما حل بهم من خراب،

وفائدة ذلك أن يحدث لدارس هذا العلم زهد في الدنيا ونزوع نحو الفضائل فيرغب فيها ويبتعد عن الرذائل. (عويس، 1988م، ص 128),

و- المرحلة السادسة:

إذا أحكم المرء ما سبق، فيلزم أن ينظر في العلوم الفكرية، بأن يطلب البرهان من العلوم الضرورية، ليتأكد: هل العالم محْدث أم لم يزل؟ إذ لا يخلو العالم من أحد وجهين: إما أن يكون قديمًا وإما أن يكون حادثًا، وإذا كان حادثًا فهل له من محْدث؟ وليقف كذلك على حقيقة النبوة، فيتأكد من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. (ابن حزم، 1987، ص74).

ي- المرحلة السابعة:

وهي آخر المراحل التعليمية، إذ يدرس الطالب فيها علم الشريعة، والوقوف على حقائقها، وتمييز الصحيح منها من الباطل، وينقسم علم الشريعة إلى أربعة أقسام: علم القرآن وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم الكلام. « وقد بيّنا أن كل شريعة سوى الإسلام فباطل، فالواجب الاقتصار على شريعة الحق.»(ابن حزم، 1987، ص75-78)

والنتيجة هي أن مراد ابن حزم من مشروعه التربوي التعليمي هذا، هو تربية الفرد المسلم على تعلم العلوم، وغرضه من ذلك إنما هو تعلم علم ما أراد الله تعالى منا... وما به يكون خلاص المسلم في الآخرة، فلا سبيل إلى صحة المعرفة واستحقاق حقيقتها إلا بمعرفة أحكام الله عز وجل، وهو المعرفة بالشريعة... وجملة الأمر أنه لولا طلب النجاة في الآخرة، لما كان لطلب شيء من العلوم معنى؛ لأنه تعب وقاطع عن لذات الدنيا... فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض... ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة فقط وهو علم الشريعة... إذ حقيقة العلم هو ما قلنا إنه يطلبه لينتفع به طالبه، وينتفع به غيره في داره العاجلة، وداره الآجلة التي هي محل قراره ومكان خلوده... فتعلّمُ العلم لا يقصد لذاته، إنما لمعرفة الخالق جل جلاله، ذلك أن أجلّ العلوم ما قرَّبك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه، وما أقر بصدق نبوة خير المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصحة القرآن الكريم، ومن طلب العلم لغير الله تعالى رام حبّ الدنيا من الرئاسة والمال. (ابن حزم، 1987، 74- 90-

170-344). ورؤية ابن حزم هذه، لا يمكن أن نستغربها، فهي صورة معبرة عن نظرة المفكر المسلم للعلم، الذي تسيطر عليه الروح الدينية، ووضعه لمنهج تربوي يناسب الفرد المسلم، فيضع الشريعة معيارا لتحديد قيمة أي علم، وبمقدار ما يقدمه ذاك العلم من خدمة لشريعة الإسلام، وبما يقرب العبد المسلم من ربه، فيكون هو الأهم والأكمل والأفضل.

ثانيا: محتوى المنهج التربوي التعليمي وأهدافه:

قدم ابن حزم منهجا تربويا تعليميا لمواد الدراسة وفقا لتدرجها:

أ- الكتابة: يوجه ابن حزم أولياء الأمور إلى أن يربّوا أبناءهم وتنشئتهم على طلب العلم.

ب- القراءة والقرآن: ترتبط إجادةُ المتعلم القراءة عنده، بمدى مهارته في حفظ القرآن الكريم.

ج- النحو واللغة: النحو يشمل قواعد الصرف، وعلم اللغة قائم على الألفاظ ودلالتها اللغوية.

د- الحساب والهندسة: تأتي أهميتهما للمنفعة الدينية والدنيوية والعلمية لفهم الكون.

هـ- المنطق والطبيعيات: يعلمان أساليب التفكير السليم؛ ومعرفة البراهين، وليقف المتعلم على تأثير الصانع، واختيار المدبر وحكمته في مخلوقاته الطبيعية.

و- علم الأخبار: التاريخ، دراسة أخبار الأمم ترغّب المتعلم في الفضائل وتنفره من الرذائل

ز- علم ما بعد الطبيعة والفلسفة: مهمتهما البحث في العقائد وما وراء الطبيعة، وإقامة الأدلة على أن العالم مخلوق لله ليس قديما، والإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والأنبياء والرسل قبله.

وبذلك يكون ابن حزم قد تجاوز النظرة التقليدية في التعلم، والتي تعتمد على الحفظ والاستظهار فحسب، فالتعلم لا يقتصر على المادة التعليمية، لكنه يخضع للتربية، فالتربية الخلقية والدينية والوجدانية والعقلية والاجتماعية وغيرها... منصهرة في بوتقة المراحل التعليمية الحزمية؛ وثمة لائحة من الكفايات التي يجب على المتعلم بلوغها في مرحلة تعليمية ما، وهو ما يؤكده ويؤيده علم النفس المعرفي والتربوي، وباستطاعة الطفل

أن يدّخر مجموعة من المعارف والمهارات، لحل مشكلة معقدة أو طائفة من المشاكل. ولو ضربنا مثلاً آخر للممارسة الفعلية لعمل واقعي لا يستغني عنه كل فرد، لاتضح ضرورة ارتباط المعرفة بالعمل في شتى ألوان المعرفة، فنجد مثلاً أنّ كتب تعليم القيادة للعربات تتجاوز أربعمائة صفحة، ولكن جلّ الأفراد يستوعبونها في أقل من شهر، بينما لو درّسناها نظرياً لاستغرق ذلك أكثر من فصلين دراسيين، وهناك معارف لسانية إنسانية غير خاضعة للتجربة، فمثلاً علم المنطق، ومثله المناهج الفكرية للتأمل العقلاني، فالممارسات المنهجية أحوج ما تحتاج إلى الممارسة التطبيقية، وهناك المناهج الفكرية للتأمل السلوكي، وكلّها لا مكان لها إذا لم تمارس فعلياً في حياة الأفراد، لتكون مناهج اجتماعية، كما هو حال التربية والتعليم باليابان.

ثالثا:- تصنيف العلوم عند ابن حزم:

أقام ابن حزم تصنيفه للعلوم على أساس التفرقة بين صنفين رئيسيّين: صنف نافع محمود يدخل في سياق الشرع والعقل، ويقابله صنف مذموم خارج عن مسار الشرع والعقل. « فالعلوم تنقسم أقساما سبعة عند كل أمة، في كل زمان وفي كل مكان وهي: علم شريعة كل أمة... وعلم أخبارها وعلم لغتها، فالأمم تتمايز في هذه العلوم الثلاثة، والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها وهي: علم النجوم وعلم العدد والطب... وعلم الفلسفة، ومعرفة إلهية... وقد بيّنا أن كل شريعة سوى الإسلام فباطل، فالواجب الاقتصار على شريعة الحق...»(ابن حزم، 1987، 78). كما قسم ابن حزم مواد الدراسة إلى مجموعتين: مجموعة تتغير من أمة إلى أمة، وهي: الشريعة واللغة والأخبار، لأن الأمم تتمايز عن بعضها، وتتضح سماتها في هذه العلوم الثلاثة، ومجموعة تتشابه في الحقائق والمحتوى عند جميع الأمم؛ ورأيه لا يزال صوابا في ذلك، فهذه المواد تتصل بشخصية الأمة وقيمها، وطريقة تنشئة مواطنيها على أفكار، وفلسفات تتمايز فيها كل أمة عما سواها. وأقسام علوم الشريعة عنده أربعة:" وعلم شريعة الإسلام ينقسم أقساما أربعة: علم القرآن وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم الكلام؛ ويضيف لهذه العلوم الأربعة مجموعة من العلوم الأخرى، وهي: النحو واللغة والأخبار، وعلم النسب وعلم النجوم، والعدد والمنطق والطب، والشعر والبلاغة وعلم العبارة -أي تعبير الرؤيا- . (ابن حزم، 1987، 78-79)

رابعا: مميزات منهج ابن حزم في تصنيف العلوم:

لقد صنف ابن حزم العلوم على أساس التداخل المعرفي، والنظرة التكاملية للعلوم، وإقامة تكامل بين جملة من العلوم والمعارف التي جمعت أشكالا وصنوفا شتى من العلوم النقلية والعقلية، والهدف من ذلك خدمة الشريعة الإسلامية.« فالعلوم كلها متعلِّق بعضها ببعض، محتاج بعضها إلى بعض... بل لا يستغني منها علم عن غيره، وليأخذ من كل علم بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لابد منه كما وصفنا، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته، فيستكثر منه ما أمكنه، فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، على قدر زكاء فهمه وقوة طبعه وحضور خاطره وإكبابه على الطلب، وكل ذلك بتيسير الله تعالى... فهذه الأفانين هي التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه إسم العلم والعلوم، وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما عُلِم فهو علْم، فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة، وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر وغرسها، والبناء وغير ذلك؛ إلا أن هذه إنما هي للدنيا خاصة فيما بالناس إليه الحاجة في معايشهم؛ والعلوم التي قدّمنا، الغرض منها التوصل إلى الخلاص في المعاد فقط، فلذلك استحقت التقديم والتفضيل وبالله تعالى التوفيق...»(ابن حزم، 1987، 61-62-81) محذّرا من الإنشغال عن علوم الشريعة بأقسامها. « فإذا اشتغل مغفّل عن علم الشريعة بعلم غيره فقد أساء النظر وظلم نفسه، إذْ آثر الأدنى والأقل منفعة على الأعلى والأعظم منفعة، وأما العلوم المذمومة والمرفوضة شرعا، فهي تشمل أربعة علوم: السحر والكيمياء والموسيقى والكواكب أو النجوم.»(ابن حزم، 1987، 75). كما يرى ابن حزم ضرورة التكامل والتنسيق بين هذه العلوم، التي يجب على الطالب أن يدرسها؛ إذ أنها تتكامل مع بعضها، وكل منها يحتاج إلى الآخر، ولا فرق بينها من حيث الهدف، وكلها تسعى إلى تربية المسلم وتحقيق السعادة له في الدنيا، وفوزه بالجنة في الآخرة، وهي تؤكد وجود الخالق سبحانه وتعالى وتكشف عن بديع صنعه، وعظيم خلقه. (حسان، 1964 ، 122).

خامسا: دعائم التربية والتعليم عند ابن حزم:

قدّم ابن حزم جملة من النصائح والوصايا التربوية لطالب العلم، منها التخلُّق بأخلاق العلماء ومصاحبتهم، والتأدب بأدبهم وتوقيرهم، وأن يتجنّب الرذائل التي لا تليق بطالب العلم، كالحسد والاغترار بما بلغه من مراتب علمية، مع ضرورة مصاحبة الكتب والاستكثار منها، لأنها نعْم الخازنة له –أي للعلم– إذا طُلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم تُوجد. يقول ابن حزم:« ونحن نوصي طالب العلم بألَّا يذم ما جهل منها – العلوم–، فهو دليل على نقصه وقوله بغير معرفة، وألَّا يعجب بما علم فتطمس فضيلته، ويستحق المقت من الواهب له ما وهب، وألَّا يحسد من فوقه حسداً يؤديه إلى تنقيصه، فهذه رذيلتان، وأما إن حسده ولم ينتقصه، وكان ذلك رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه محسوده فحسن، وهو رغبة في الخير؛ وألَّا يحقر من دونه، فقد كان في مثل حاله قبل أن يعلم.»(ابن حزم، 1987 ،81). كما اشترط ابن حزم على المدرّس، أن يجهد نفسه على تدريب الصبي وترويضه على إنجاز كتابة الخط بطريقة سليمة متقنة، قابلة للقراءة بسهولة، وهو الحد الأدنى الذي لا ينبغي أن يقتصر المعلم على أقل منه أن يكون الخط قائم الحروف بيِّناً صحيح التأليف الذي هو الهجاء. ومعنى ذلك أن اشترط الكفاية التربوية، وهي العلاقة الواقعة بين شخصين مختلفين يتطلعان إلى نفس الحقيقة، لأجل تأسيس فعل بيداغوجي تكاملي في مرحلة تعليمية محددة؛ ووضع ابن حزم قواعد صارمة لأدب الجلوس للعلم، يمكن أن نختصرها في هذه النقاط:

- ✓ الفهم والبحث والصبر.
- ✓ التعب على طلب العلم وإنفاق المال عليه.
- ✓ الاستكثار من الكتب لأنها لا تخلو من فائدة، والمرء لا يستطيع حفظ جميع العلم الذي درسه، فيرجع إلى الكتب عند الحاجة، فالكتب تحفظ العلوم من الضياع، وتدحض دعاوى الجهلة وتساعد على التمييز بينهم وبين أهل العلم.
- ✓ التواضع في طلب العلم.
- ✓ تقييد ما يسمع وجمعه.
- ✓ السكن في المدن التي ينتشر فيها العلم.
- ✓ حضور المناظرات ومجالس العلم لحصول السماع من مختلف العلماء

- ✓ طلب علم تتحقق فيه الرغبة ويتوفر معه الميل، والأخذ من باقي العلوم بما يكفي لمعرفة أغراضه
- ✓ حضور مجالس العلم من أجل الاستزادة وحصول الثواب والأجر.
- ✓ الابتعاد عن البحث عن عثرات المدرسين.
- ✓ الالتزام بالسكوت، وقلة الفضول أثناء الإنصات للدرس.
- ✓ على المتعلم أن يسأل عمَّا لا يدري، لا عمَّا يدري، وأن يبتعد عن مراجعة كلام مدرسّه مراجعة متكبر.

ويستتبع ذلك كفاية ما أسماه ابن حزم :"الكتاب"، وهي الإنتقال إلى مصاحبة الطالب للكتاب، للتزود منه واتِّخاذه رفيقاً، يؤنس وحشته ويزيل كل عثرة أو فشل دراسي، قد يحول دونه وتلقي صنوف العلم؛ بل إن هذه الكفاية الأخيرة تترجم حقيقة، درجة تحكم الطالب وتمثُّله الأقصى للمهارات والكفايات، وهي مؤشر دال على التمايز بين طالب وآخر. فالكتب كالدواء القويّ إذا تناولها ذو العقل الذكي والفهم القوي، لم يعدم منها نفعاً جليلاً وهدياً منيراً وبياناً لائحاً، وخيراً في دينه ودنياه، وإذا أخذها ذو العقل السخيف أبطلته، أو ذو الفهم الكليل بلّدته وحيّرته. (ابن حزم، 1987، 101). فطلب العلم لا يتحقق بيسر، إنما بثلاث عناصر أساسية هي: الكد والمثابرة وصرف المال في اقتناء الكتب، وليأخذ من كلٍّ بنصيب ومقدار، ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لا بد له منه، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه، فيستكثر منه ما أمكنه، فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، على قدر ذكاء فهمه وقوة طبعه، وحضور خاطره وإكبابه على الطلب، وكل ذلك بتيسير الله تعالى... لأن جاهل العلوم متسكع أعمى.(ابن حزم، 1987، 78-79).

كما نبَّه إلى ضرورة حسن التواصل بين العالم وطالب العلم، بتنشيط وتوجيه الممارسة الديداكتيكية التي يكون فيها المعلم في موقع الباحث، لكونه عصب العملية التعليمية – التعلُّمية– ومدارها؛ فالبحث العلمي الرصين عنده، لا بد أن تتوافر فيه شروط الجدية والإبداع والابتكار والتحديث، والبعد عن التقليد الأعمى، لأن التقليد عنه مذموم، ولأن كل من لم يقرأ الإنتاجات السابقة عليه ويتمثلها خير تمثُّل، هو شبيه أو قريب النسبة من البهائم؛ فإن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله، وعليه بذل جهده، وتقريبه بقدر

استطاعته –العلم– ويدعو إليه في الشوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، ويعظّم الأجعال عليه للباحثين عنه، صابراً في ذلك على المشقة والأذى. (ابن حزم، 1987، 94– 96–101–412).

– سادسا: تهذيب النفس وإصلاح عيوبها:

الذات عند أبى محمد دنيئة وأمارة بالسوء، ولا يخضع لها إلا ساقط الهمة جداً، والعاقل من روض نفسه الرياضة التامة، وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا، مع مداواة شره النفس، للحصول على السعادة. فالسعادة ليست شيئا يأتينا من الخارج، أو لذة مادية خارجية نقترفها، فتُحقِّق لنا طرد الهم، بل هي نشاط أو سلوك ذاتي صادر عنا، فهي ليست فعلا خارجا عن نطاق الذات؛ بل إنه في ذات الإنسان ذاته، وعليه أن يدرك ذلك ويكتشفه بنفسه، وإلا فإن البهائم تشاركه في ذات الأفعال. الذات عند أبى محمد دنيئة وأمارة بالسوء ولا يخضع لها إلا ساقط الهمة جداً، والعاقل من روض نفسه الرياضة التامة، وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا مع مداواة شره النفس.(ابن حزم، 1987، 407/1). ولأن نفس الإنسان إما أن تميل إلى المعاصي والرذائل، من خلال تقصيرها بعمل الفضائل والطاعات، أو غلوها في إتيان الأعمال القبيحة، أما إذا قامت بالطاعات فهنا تكون قد وفِّقت إلى الاعتدال والوسطية؛ ولهذا فإن السعيد من أنست نفسه بالفضائل ونفرت من الرذائل، والشقي على خلافه. ذلك أنه « ليس بين الفضائل والرذائل إلا نفار النفس وأنسها.» (الدباس، 1993، 126) فالإنسان الفاضل عنده من لا يعرِّض نفسه للتفريط والتقصير في أداء الواجبات، ولا يشتط أو يبالغ لحد الإفراط، بل هو على استعداد لأنْ يُضَحِّي كما في حال الشجاعة بنفسه في المواطن التي تتطلب ذلك، وأما من لم يستطع الاهتداء، أو لم تكن له القدرة، أو جهل كيفية الحصول عليها، فينصحه أبو محمد بأن «... يعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يحتوي على جميع الفضائل...»(ابن حزم، 1987، 401/1).

أ– رياضة النفس

يرى ابن حزم أن رياضة النفس وتربيتها، أصعب من ترويض الحيوانات المفترسة؛ إذ إن الحيوانات المفترسة إذا سُجنت، أمِن الناس أذاها وشرها، في حين أن النفس الإنسانية بخلاف ذلك لا يؤمن أذاها وشرها.(ابن حزم، 1987م، 394/1). وإذا أراد الإنسان تهذيب نفسه وتربيتها ؛من أجل الوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فلابد له من أن يسعي جاهدًا إلى تحقيق ما يلي:

ب- الطمع سبب كل هم:

المحرك الأساسيّ لسلوك الإنسان من وجهة نظر ابن حزم هو الطمع؛ وسبب نشوء الهم وعلة حدوثه هو الطمع، حيث أنَّ شراهة الإنسان وطمعه، في تحقيق ما يقْدر وما لا يقدر عليه، تجلب له المتاعب والهموم، ومن ثمة يعمل جاهدا لأجل التخلص منها. « الطمع سبب إلى كل هم... وأصل كل هم، وهو خلق سوء ذميم وضده نزاهة النفس، والطمع مركّب من أربع صفات وهي: الجبن والشح والجور والجهل، ولولَا الطمع ما ذلّ أحد لأحد.»(ابن حزم، 1987، 371/1-372) كما أن الطمع أصل كل هم وهو خلق سيء ذميم، يؤدي بصاحبه إلى سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، وضده هو نزاهة النفس والقناعة، وهذه صفة فاضلة، متركبة من النجدة والجود والعدل والفهم؛ فصاحبها فَهَمَ قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها، فاقنع بما عندك يقنع لك من عندك. (ابن حزم، 1987، 371/1). فربية النفس تقتضي عدم الطمع، حتى يبعد عن نفسه الهم والغم، ويهنأ في حياته العاجلة والآجلة.

ج- الاشتغال بالعلم:

الإشتغال بالعلم يساعد الإنسان على رياضة النفس، وإصلاح عيوبها؛ كما تبدو منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة؛ إذ إنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها، ويعلم قبح الرذائل فيتجنبها.(ابن حزم، 1987، 1/ 343-346). ومن فضْل العلم والإكباب على طلبه، والعمل بموجبه أنك تحصل على "**طرد الهم**" الذي هو الغرض الجامع لجميع المقاصد أولها عن آخرها، وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ لَا إله إلّا هو. " واعْلم أن الوقوف على الحقائق لَا يكون إلّا بشدة البحث، وشدة البحث لَا تكون إلّا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال... ولَابد لطالب الحقائق من الإطلَاع على القرآن ومعانيه...

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم... ومطالعة الأخبار القديمة والحديثة... واعلم أن نظرك في العلوم على نية إدراك الحقائق في إنكار الباطل ونصر الحق، وتعليمه للناس، وهدي الجاهل، ومعرفة ما تدين به خالقك لئلّا تعبده على جهل... ونفعك الناس في أديانهم وأبدانهم وتدبير أمورهم... وتفهيمهم وتقبيح القبيح لديهم، أفضل عند الله من كل نافلة تتقرب بها إلى الله عزّ وجل وأعظم أجرا... واعلم أن ذلك أعظم ثوابا وأفضل عاقبة، وأكثر منفعة من صلتك الناس بالدنانير والدراهم، وقد قال الواحد الأول عز وجل:﴿ إنّمَا يَخْشَى اللهَ من عِبادِهِ العُلَمَاءُ﴾.(ابن حزم، 1987، 343/4-348) و(ابن حزم، 1987، 134/3). لقد حاول ابن حزم أن يقدم فلسفة تربوية، تدعو إلى تهذيب النفس وإصلاح عيوبها، مهتما بجوانب تربوية مثل: التعلم والتعليم، وآداب مجالس العلم، والعلوم الواجب تدريسها ومراحلها، واعتمد في ذلك على الاستقراء وتتبع أخلاق الناس الذين عاشرهم واتصل بهم، فقدّم نظرية تربوية في أسسها واضحة في معالمها، متكاملة في عناصرها؛ ربط فيها النمو الجسمي للمتعلم، بالنمو بالوجداني العقلي الإدراكي اللّذين يمكنانه في آخر مشواره التعليمي من النجاح في دنياه والفوز بآخرته." (أبو زهرة، 1954م، ص154) (وديع واصف، 2000م، 322).

د- أن يعلم الإنسان عيوب نفسه ويعمل على إصلاحها:

سلك ابن حزم في تربية النفس وإصلاح عيوبها مسلكًا عمليًا واقعيًا؛ إذ بدأ بالبحث عن عيوب نفسه وإصلاحها أولاً، ثم انصرف بعد ذلك إلى توجيه الآخرين إلى كيفية مداواة النفوس، وإصلاح عيوبها؛ إذ لا يخلو مخلوق من عيب، والسعيد من قلّت عيوبه ودقّت. يقول عن نفسه:" كانت فيّ عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس أعاني مداواتها، حتى أعانني الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنِّه، وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يومًا إن شاء الله." (ابن حزم، 1987، 353/1-354). فحينما نظر ابن حزم في أعماق نفسه، وجد أن بها عيوبا، منها: الإفراط في الغضب وعجب النفس، وحب أن يذيع صيته، وسوء الظن وغير ذلك.. ولا شك أن ذلك يدل، على أن ابن حزم وصل إلى مرحلة عالية من التحليل النفسيّ الذاتيّ، استبطن فيه مكونات شخصيته،

وكشف عن نوازعها واتجاهاتها، ووضع يده على مواطن عيوبها، وأوْجه النقص بها؛ وبعد فراغه من إصلاح عيوب نفسه، بيّن للآخرين كيفية مداواة نفوسهم، وإصلاح عيوبهم على النحو الآتي:

1- علاج العُجب

يرى ابن حزم أن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها، وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي جهل عيوب نفسه، إما لقلة علمه وتمييزه، وإما لأنه يقدّر أن عيوبه خصال، وهذا أشد عيب في الدنيا؛ إذ لا يسلم إنسان من نقص عدا الأنبياء صلوات الله وسلامة عليهم. (ابن حزم، 1987، 386/1).

2- علاج تطلع النفس إلى معرفة ما تُستر به عنها

من عيوب النفس تطلّعها إلى معرفة ما تُستّر به عنها من كلام مسموع أو مرئيّ، ومداواة ذلك بأن يفكر الإنسان فيما غاب عن نفسه، معرفته في الأماكن الأخرى غير الموجود هو فيها، فإن اهتم بكل ذلك فهو ضرب من الجنون، فليقل لنفسه: فكوني الآن كما كنت قبل أن تعْلمي بأن ها هنا شيئًا ستر عنك. (ابن حزم، 1987، 1/ 407)

3- علاج حب المدح وبعد الصيت

من عيوب النفس التي يجب القضاء عليها، حب المدح وبعد الصيت (الشهرة)، فإذا كان الحال كذلك فليعلم يقينًا أنه إذا مات فلا سبيل له إلى علم أنه يُذكر أو أنه لا يذكر، وكذلك الحال إن كان حيًا ولم يبلغه ذلك؛ ولذلك وجب على المرء أن ينظر في أمر نفسه ليعرف عيوبها، ويهتم بإصلاحها؛ إذ إن ذلك أولى به من أن يتتبع عثرات الناس، وكان ذلك عونًا له على قمع هذه الأخلاق الفاسدة، أما من كان مطبوعًا على الجور فلن يتيسر له ذلك. (ابن حزم، 1987، 358/1-408.)

- سابعا: طرد الهم سبيل تحقيق السعادة

مما لا يختلف حوله اثنان، أنَّ جميع الناس ينطلقون في مساعيهم وأعمالهم لأجل مطلوب واحد لا غير، وهو كيف يمكن أن يحقِّقوا أمانيهم، ويجلبوا السعادة لذواتهم، ويوفِّروا الرَّاحة المادية والمعنوية لأنفسهم، ولا ريب أن مبتغى كل فرد هو تحقيق السعادة؛ أي أن يكون سعيداً، ولأجل ذلك يسعى كل امرئ جاهداً إلى تحقيقها، فهي الهدف الأسمى في الوجود كله ولا شيء سواها. وهو ما توصل إليه أبو محمد من خلال دراساته

واستقراءاته لتاريخ البشرية كله.« تطلّبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدا، وهو طَرْدُ الهَّم... الناس كلهم لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم... فطرد الهمّ مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى... على ألّا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه.» (ابن حزم، 1987، 336/1). فالسعادة هي الخير الأعلى والأسمى الذي يسعى البشر إليه من خلال العمل الدؤوب، لأجل بلوغ الكمال فيه، حيث يتشوّق الناس بطبعهم إليه، ويكاد أكثرهم يجمع عليه بالإسم، وهو ما يسمونه السعادة، ويرون أنَّ أحسن العيش وحسن السيرة هي السعادة .(أرسطو، 1979، 57). فطرد الهموم والغموم والأحزان التي تكدّر على الإنسان صَفْوَ حياته وهدوء باله، هي أبلغ وأقصى ما يطمح إليه المرء ويتمناه. لهذا يزداد سعي البشر وتتفاوت هِمَمَهُم في طرح الهموم وإزالتها، بل وإزاحتها عن أنفسهم. وما عبَّر عنه أبو محمد بطرد الهم، اتفقت سائر الأمم على اختلاف دياناتهم وتباين أفكارهم على طلبه، لأنهم مشتركون في ذات الغرض ومتساوون في نفس الهدف، وهو إبعاد كل هم عن أنفسهم، أيَّ همّ كان. هو ذاته ما قصد إليه أرسطو، وما ذهب إليه ابن المقفع:« غايات الناس صلاح المعاش والمعاد، وعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون متساوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذي، وأن هذه منزلة إتفق عليها الحمقى والأكياس.»(ابن المقفع، 1911، 5-12)

- ثامنا: دفع الهم والغم عن النفس

نظر ابن حزم في غرض العقلاء من سعيهم في الدنيا، فلم يجد إلا شيئًا واحدًا قد اتفقوا عليه، وهو دفع الهم والغم عن نفوسهم، وإن اختلفت طرقهم في تحقيق ذلك، فهذا في الأكل والشرب، وهذا في التجارة والكسب، وهذا بالزواج، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا في اللهو واللعب، ولكن كل هذه الطرق غير موصلة إليه بل إن أكثرها إنما يؤدي إلى ضده، ولا يوجد إلا طريق واحد فقط موصل إليه من وجهة نظر ابن حزم، وهو الإقبال على الله وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء؛ منه إلى لذته وبهجته وسعادته. ولما كان الحال كذلك كان يجب على الإنسان أن يعمل من أجل الآخرة فقط ؛ لأن كل أمل ظفر به فعقباه حزن إما بذهابه عن هذا الشيء، وإما بذهاب هذا الشيء عنه، إلا العمل ابتغاء مرضات الله عز وجل، فعقباه على كل حال سرور في الدنيا

والآخرة، أما في الدنيا، فقلة الهم بما يهتم به الناس، فيكون الإنسان محل تقدير واحترام وتعظيم من كل الناس سواء أكان صديقًا أم كان عدوًا، وأما في الآخرة فجزاؤه الجنة. (ابن حزم، 1987، 1/335-394). والمُراد بطرد الهم، هو دفع الآلام النفسية والجسمية عن المرء، لأجل تحقيق اللذة بنوعيها المعنوية والمادية، وكل إنسان مجبول على حب اللذة، لإحساسه بل وإدراكه بكونها ملائمة له، ونفوره من الألم لكونه مؤلما ومؤذيًا له. فنحن جميعا نتلذذ بطرد الهم لأجل تحقيق الحياة السعيدة؛ وتبعا لذلك نحب الحياة من أجل تحقيق اللذة الخالية من كل هم أو غم. وأفضل علاج طارد للهم هو التوجه إلى الله ومحبته، والعمل من أجل الآخرة؛ إذ إن محبة الله هي أعلى الغايات وأشرفها، وهي الشيء الذي يجب على الإنسان أن يجعل منها المحرك الأساسي، لبذل المجهود من أجل الحصول على السكينة والتخلص من الهموم المهددة كيانه.(بنيعيش، 2008، 106) ذلك أن الهم مصدر الآلام والغموم، ومبعث الهموم والأحزان التي تذيب الإنسان كمدا، كما يقول ابن حزم:« أشد الأشياء على الناس: الخوف والهم والمرض والفقر، وأشدها كلها إيلاما للنفس الهم لفقد المحبوب وتوقّع المكروه ثم المرض... وأشد الأمراض كلها ألماً، وجعٌ ملازم في عضو ما بعينه، وأما النفوس الكريمة فالذل عندها أشد من كل ما ذكرنا.» (ابن حزم، 1987، 1/404) ويلزم عن ذلك ضرورة، هو أن الهم شر ويجب طرده، وجلب الرضا ينتهي بالإنسان حتما إلى الخير، ومن ثمة إلى السعادة. فطرد الهم هو الطبيعة السلبية للسعادة، والناس جميعا على اختلاف اعتقاداتهم وأجناسهم وعصورهم وأماكنهم يسعون إليها، هذه السعادة التي تتصف بأنَّ قيمتها كامنة فيها. (الدباس، 1993، 126).

وإن طرد الهموم لن يتوقف ما دام الإنسان حيّاً، ذلك أن الهموم مطّردة وكأنها متتالية هندسية، وذات ديمومة واستمرارية، لا تنقطع حتى أثناء النوم والغيبوبة، ومهما سعى الإنسان وجدَّ واجتهد، فلن يقدر على إزالتها وطردها نهائيا، فهناك من يطرد همّ الجهل بطلب العلم، وطالب المال لطرد همّ الفقر، ومزيل هم البطالة بطلب العمل، وهكذا... فكل الناس يحاولون عبثا أن يطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم، وفي كل ما ذكرنا لمن تدبّره هموم حادثة لابد منها من عوارض تَعْرِضُ في خلالها وتَعَذُّر ما يتعذر منها، وذهاب ما وجد منها. ولأن الإنسان ما خلقه الله إلا ليبتليه بأنواع

شتى من الهموم والغموم والأحزان. وإذن فلا وجود لبصيص أمل، أو لوميض حلم لقطع دابر كل الهموم «... فلم أجدها إلا في التوجّه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة... ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب، خالصا من كل كدر، موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة إن امتُحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسَرُّ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال منه، عونٌ له على ما يطلب... فاعلم أنَّ طرد الهم ليس إليه إلا طريق واحد، وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلال وسخف...»(ابن حزم، 1987، 1/337-338) فلا يوجد إلّا طريق واحد مختصر، بل هو أفضل وأقصر الطرق كلها، حيث به وحده يتم الخلاص نهائيا، إنه طريق الآخرة، فالعمل للآخرة موصل لطرد الهم علي الحقيقة. وإنما تنال اللذات لأجل تحقيق طاعة الله، فالتلذذ الروحي والمتعة النفسية هي الحلقة الأخيرة والقصوى التي يسعى المسلم لأجلها، بل ولأجلها يشمّر المشمّرون ويتنافس المتنافسون، وهذا ما يحمل النفس على الأعمال الحسنة والطاعات وفعل الفضائل، لأجل بلوغ أعظم لذة وهي السعادة.« إذا نام المرء عن الدنيا -أي مات- نسي كل سرور وكل حزن، فلو رتَّب نفسه في يقظته -أي حياته- على ذلك أيضا، لسعد السعادة التامة.» (ابن حزم، 1987، 1/342) فاللذات الحقيقية عند أبي محمد هي ثمرة التربية، وتلك اللذات لّانهائية، لسرمدية ومطلقة، وهي لا تكون إلّا في الآخرة.

تاسعا: الفضيلة سبيل السعادة

إن لطرد الهم علاقة وطيدة بالسعادة والفضيلة، إن الفضيلة هي سبيل السعادة، ولإدراك السعادة وجب إدراك الفضائل أوّلا ومعرفتها والالتزام بها سيان كانت هذه الفضائل طبْعية أو كسْبية. يحكي ابن حزم عن نفسه أنه طُبِعَ على أفعال، واكتسب بنفسه أفعالا أخرى. (ابن حزم، 1987، 1/354-358) ولا يتوقف الأمر عند أبي محمد في التزام حدٍّ مُعين من الفضائل بل « ينبغي أن يرغب الإنسان العاقل في الاستكثار من الفضائل والأعمال التي يستحق من هي فيه الذِّكر الجميل والثناء الحسن... فهي التي تقربه من بارئه تعالى. والعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيه سبع أو بهيمة أو جماد وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة؛ وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة... لكن من قوي تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك وقول الله:﴿ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهَى النَّفْسَ

عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَّنَةَ هِيَ المَأْوَى﴾ سورة النازعات 40) جامع لكل فضيلة... وما دام للإنسان عقل ففرض عليه تعلم الخير والعمل به، فمن جمع بين الأمرين جميعا فقد استوفى الفضيلتين معاً.» (ابن حزم، 1987، 339/1-386-340-341- 413) وكلما تقدم المرءِ في الفضائل، إتَّسع علمه وحسن عمله وزادت سعادته وأصبح قريبا من الملائكة؛ فنهيُ النفس عن الهوى جامع لكل فضيلة، ومن اتبع الهوى فقد هوى، وهذا النهي أيضا رادع لها عن الطبع الغضبي والشهواني، لأن كلاهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا استعمال النفس النزيهة التي هي العاقلة، وذلك للنطق أو العقل الموجود فيها، والذي به بانت عن البهائم والحشرات والسباع.(ابن حزم، 1987، 340/1-341).

لقد شكلت الأفكار التربوية أهمية كبرى في اهتمامات أبى محمد, وإن لم نكن مبالغين فإنَّنا نقول إنها محور أفكاره كلها, لأنها الغاية التي يجب أن يدركها الإنسان ويستوعبها، خاصة وأن الشريعة والفلسفة قد اتفقتا معاً على الدعوة إلى الفضائل وإلى التمسك بالقيم التربوية والخلقية. (ابن حزم، 1987، 134/3). لهذا كان ابن حزم مدركاً أنَّ إنسانية الإنسان لن تتحقق إلا بتربية الفرد على السلوك الفاضل، فهو الموصل إلى الكمال الدنيوي والأخروي، فلولاه ما انْبَعَثَ في نفس المهموم العَزْمُ والجِّد والسعي لأجل طرد الهم، طمعا في الحصول على ضده المحمود والمرغوب فيه. « وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فوتها، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل... وكل الناس ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم... فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها السباع أو الحيوانات أو الجماد، بل يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي ميزه الله بها عن سائر المخلوقات، وهي الحكمة، وقوة تميزه، وأتساع علمه، وحُسن عمله، وهي مرتبة لا يتقدمه فيها إلا الملائكة وخيار الناس.» (ابن حزم، 1987، 337/1-340). وللوصول إلى معرفة الفضائل والرذائل اعتمد ابن حزم على العقل والتجربة؛ إذ يرى أن العقل والمعرفة والتهذيب، والعلم التام بالمقياس الخُلقيّ الضابط، وأصول الفضائل المقررة، وطرق علاج النفس بالنفس، والأخذ بقوانين السلوك الفاضلة، كل ذلك يهدي المرءِ إلى معرفة الفضائل والرذائل، ومن ليست لديه هذه القدرة العقلية، التي تساعده على التمييز بين الفضائل والرذائل، توجّب عليه اتباع الشرع، فهو وحده

الكفيل بتبصيره بالفضائل والرذائل. (أبو زهرة، 1966، 156) أي أن من جهل معرفة الفضائل، فليلتوم بأوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، ولينته عما نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه، إذ أنهما يحتويان على جميع الفضائل. وإذا استطاع الإنسان بعقله وقوة تمييزه، أن يسيطر على قوى نفسه الأخرى، سواء أكانت الغضبية أم الشهوانية، فلا جزاء له إلا السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾(سورة النازعات: أية 40-41). إذ أن تربية النفس وإصلاح عيوبها، يوجب على المرء نهي نفسه عن الهوى، وهو ردعها عن الطبع الغضبيّ وعن الطبع الشهوانيّ؛ لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى. (ابن حزم، 1987، 341/1- 401)

وتومض لنا هذه الجملة بأن ثمة طريقا جدليا بين الهم والطمع، فالهم يثير صاحبه ويدفعه، وبالمقابل يقوي الطمع إرادته وعزيمته لأجل الحصول على ما يتمناه أو يريده، وحتى لو تأذى الإنسان أو نكب وأصابه الهم والغم، فلا ينبغي أن يهتم لذلك، فهو في سرور وانشراح نفس دائم؛ لأنه يرى أنَّ ذلك لأجل الله وفي سبيل الله، فكل عمل تقوم به لوجه الله تعالى، هو سلوك أخلاقي فاضل في جوهره، لأنك تؤديه لله وحده، ولهذا فهو برئ من كل عيب، خالص من كل كدر، وعقباه سرور في العاجل والآجل . وإنَّ الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط... أما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس... وأما في الآجل فالجنة.»(ابن حزم، 1987، 335/1)

وإنَّ النظرة التحليلية الفاحصة الناقدة لآراء وأقوال أبي محمد، تبين بوضوح عنايته الشديدة بالجانب العملي منها، ولا عجب أن تكون دراساته مبنية على منهج عقلي استقرائي، حيث تناول من خلال تجاربه الخاصة، ومن معايشته للناس مختلف الأفعال وردودها، والأحوال التي كان يشاهدها بالتحليل والنقد، ليكون الخُبْرُ أبلغ من الخَبَر؛ مضْفيا عليها إستدلالات دينية واستنتاجات عقلية. لهذا لاحظ بعض الباحثين، أنَّ دراسات ابن حزم التربوية، كانت نقدية تحليلية عميقة، خاصة في تقريره المبادئ الخلقية التي تستند إلى الأصول الدينية، وإلى العقل والتجربة، وكان ملمّاً بكثير من النظريات اليونانية، فضلا عن أنه كان على علم بحكمة الفُرس والهند، إضافة إلى تجاربه الشخصية، ممّا أهَّله إلى تقديم نظرية تربوية رائدة. (إبراهيم، 1966، 75) و(فروخ، 1980، 197).

خاتمة:

نستنتج من ذلك كله أن ابن حزم لم يعدم النظر الفلسفي ولا التحليل العلمي، فقدّم لنا نظرية تربوية، ولم يكتفِ بالجانب النظري التجريدي، وإنما سعى إلى تحقيق غاية تربوية عملية، تهدف إلى تربية السلوك الفاضل، وغرس القيم في النفس حتى تصلح وتتهذب وتسعد، كما يتجلى لنا من أفكاره التربوية، جمْعه بين النقل والعقل. فابن حزم فيلسوف تربية، إستقرأ أفعال الناسن ليصل إلى أنَّ غرضهم المشترك بينهم جميعاً هو دفْع الهم، ذلك أن علماء التربية يشترطون في الضابط الذي يصلُح مقياسا تربويا، أن يكون عاماً لا خاصاً، لأنه ميزان لوزن قيم الأفعال كلها، فالأحكام عامة لكل الناس. ولم تقتصر فلسفته التربوية على بيان كيفية تهذيب النفس، وإصلاح عيوبها؛ بل شملت تقسيمه العملية التعليمية إلى مراحل، حدد في كل مرحلة العلوم الواجب دراستها والهدف من تلك الدراسة حتى يكتمل للنفس تهذيبها. وإن الفلسفة التربوية الحزمية تقوم على محورين أساسيين: الأول: نظريّ يتمثل في تحديد أصول الفضائل وأنواعها، والثاني: عمليّ يتعلق بقواعد تطبيق وممارسة تلك الفضائل؛ والهدف من تلك الفلسفة هو معرفة الفضائل وترجمتها في سلوك عملي، بإصلاح الأخلاق الفاسدة ومداواة علل النفوس. فلقد رسم ابن حزم من خلال ما سبق، برنامجاً تربويًّا واضح المعالم، ينطلق من تعلم الخط كمرحلة أولى، لينتهي بتعلم الشريعة الإسلامية وإتقانها؛ وهو بذلك يجعل عملية اكتساب المعرفة متدرجة من السهولة إلى الصعوبة، ومن البسيط إلى المعقد؛ ليكون متسلحاً بمجموعة من المهارات والكفايات؛ كما نستشف من ذلك كله، عمق التناول وجدّية الطرح، واستشرافه آفاق جديدة في ميدان البحث العلمي، تنبذ كل تقليد أعمى، وتدعو إلى الاجتهاد وتطوير ملكات المتعلم باستمرار من خلال إثارة الدافعية لديهم نحو المزيد من

التعلم وتقويم مسار التعلّمات بدمج الطابع الحركي:"الخط" بالطابع الفكري:"الحفظ" بالوجداني: "القراءة"؛ لذلك نقترح إعادة دراسة أفكاره السامقة، لتنال حظها من التطبيق على أرض الواقع، والاستفادة مما قدمه، إنه بحق عالم وفيلسوف تربية.

مسرد المصادر والمراجع:

- ابن حزم، 1987م، "الرسائل"، ج1 وج4، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للنشر
- ابن خلدون، 2004م، "المقدمة"، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار البلخيّ.
- أرسطو، 1979، "الأخلاق"، تحقيق:عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات
- حسان، محمد حسان، 1964، "ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي"، القاهرة، دار الفكر العربي
- إبراهيم ، زكريا، 1966، "ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي" القاهرة الدار المصرية
- فروخ، عمر، 1980، "ابن حزم الكبير" بيروت ، دار لبنان للنشر
- عويس، عبد الحليم، 1988م، "ابن حزم الأندلسيّ وجهوده في البحث التاريخيّ والحضاريّ"، القاهرة دار الزهراء
- قريش، عبد العزيز، 2011، مقال:"الاشتغال المدرسي على تنمية الطفل: من أجل اندماج اجتماعي منذ الصغر"، مجلة: علوم التربية، ع49، أكتوبر.
- أوزي، أحمد، 1983، مقال:"مجابهة بين بياجي وشومسكي"، مجلة: الدراسات النفسية والتربوية، ع3
- خوليان، ريبيرا، 1994م، "التربية الإسلامية في الأندلس وأصولها المشرقة وتأثيراتها الغربية"، ترجمة: الطاهر مكي، القاهرة، دار المعارف
- دومنيك، شالفان، 2011، "طرق وأدوات التدريس والتكوين" ترجمة: عبد الكريم غريب، القاهرة منشورات عالم التربية
- الأوراغي، محمد، 1990، "اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم"، الرباط، دار الكلام
- بنيعيش، محمد،: الفكر السلوكيّ عند ابن حزم الأندلسيّ، دار غراب، القاهرة، 2008م.
- الدباس، حامد أحمد،" فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم " دار الإبداع، عمان، ط،1993
- عيسى، محمد عبد الحميد، 1982م، "تاريخ التعليم في الأندلس"، القاهرة، دار الفكر العربي
- أبو زهرة، محمد، 1954م، "ابن حزم حياته وعصره، آراؤه وفقهه"، القاهرة، دار الفكر العربي
- محسن، مصطفى، 2009، "مدرسة المستقبل رهان الإصلاح التربوي في عالم متغير"، بيروت منشورات الزمن

– محسن، مصطفى، 2002، "في المسألة التربوية نحو منظور سوسيولوجي منفتح"، بيروت، المركز الثقافي العربي

– وديع، واصف مصطفى، 2000، "ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق"، أبو ظبيّ، المجمع الثقافيّ